المبحث الثانى

- فهم شخصية الرسول ﷺ (النبوية)

وأريد فى بداية هذا المبحث أن أمهد له بكلمة تتعلق بطبيعة الرسالة المحمدية، وهى: العموم، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(١) وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل قبله، فموسى ـ عليه السلام ـ أرسل لبنى إسرائيل خاصة، لقد اقتصرت دعوته على بنى إسرائيل، وقد ذهب موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون ليرسل معهما بنى إسرائيل فقالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(٢)

وعيسى ـ عليه السلام ـ إنما أرسل إلى بنى إسرائيل، ولم يحاول سيدنا عيسى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين، ولم يحاول أن يجاهد من أجلها.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٧ وانظر: قصص القرآن لمحمد أحمد عادل وآخرين ص ١٣٧ فما بعدها.

obeikandl.com

أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه أرسل إلى الناس جميعا، إنه أرسل إلى الناس جميعا من حيث المكان، وأرسل إليهم من حيث الزمان، فهو الرسول الدائم زمانا ومكانا [1]

بقول ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2]

إن هذا التمهيد الموجز لا بد منه لمعرفة شخصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «النبوية» من خلال حياته وظروفه التى عاش فيها، للتأكد من أن محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن مجرد عبقرى سمت به عبقريته بين قومه، ولكنه قبل ذلك رسول أيده الله ـ تعالى ـ بوحى من عنده وبتوفيق من لدنه.

إن حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واضحة بينة منذ أن خرج إلى الوجود، وحتى قبل ميلاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشرت به الكتب السماوية: التوراة والإنجيل، فقد حكى لنا القرآن الكريم ما جاء على لسان نبى الله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[3]

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، الإمام الأكبر د/ عبد الحليم محمود ص ١٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) سورة الصف، الآية: ٦.

فنسب رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ من أعظم أنساب العرب.

روى الترمذى عن العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « **إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين، ثم تخير القبائل، فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا**»[1] ومن المعلوم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولد يتيما حيث مات والده وهو فى بطن أمه، ولم يمكث كثيرا مع أمه لخروجه من مكة مع مرضعته حليمة السعدية ـ رضى الله عنها ـ إلى بادية بنى سعد، وحدث لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثير من الإرهاصات وهو مع مرضعته السيدة حليمة السعدية مما يبشر بمكانة هذا النبى الكريم عند الخالق ـ جل وعلا ـ ويعود إلى مكة بعد حادثة شق الصدر، وتخرج به أمه إلى المدينة لزيارة قبر أبيه، وليتعرف على أهله وذوى قرباه من بنى النجار، وفى طريق العودة إلى مكة مرضت آمنة بالأبواء[2].

ثم تولى أمر تربيته جده عبد المطلب، وقد ذكَّر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه تولى أمره فى يتمه فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[3]

(١) قال السيوطى فى جامعه الصغير: حديث صحيح. وانظر الاصطفا فى سيرة المصطفى ﷺ. محمد نبهان الخباز ج ١ ص ١١.

(٢) الأبواء: قرية بين المدينة والجحفة، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلا. انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ج١ ص ٧٩، ٨٠.

(٣) سورة الضحى، الآيتان: ٦، ٧.

لقد شهد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفضل وعلو المنزلةكل منافس ومعاند، وكل زنديق وجاحد، ولم يجد أحد من خصومه شيئا يزرى برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى قول أو فعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يظفر واحد من ألد أعدائه بهفوة فى جد أو هزل، فلم يجد إلى ذلك سبيلا، ولله الحمد والمنة.

أى فضل أعظم من فضل تشهد به الحسدة والأعداء؟!

شهد الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء[1].

والرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلغ من الفضائل غاياتها. واستكمل لغايات الأمور أدواتها، أن يكون لزعامة العالم مؤهلا، وقد صدق الله الكريم حيث يقول عنه فى محكم كتابه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2].

ولقد شهد للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألد أعدائه وخصومه قديما (النضر بن الحارث) من بنى عبد الدار، حيث قال: (كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب. وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر!! لا والله ما هو بساحر)[3].

(١) الاصطفا فى سيرة المصطفى ج ١ ص ٦٧ فما بعدها.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) انظر كتاب (نور اليقين) للخضرى بك ص ١٧.

وهناك كثير من شهادات الأعداء لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ويكفيه فخرا وشرفا شهادة خالقه وبارئه فى كتابه الكريم فى كثير من آياته البينات، والذى أريد أن أركز عليه فى هذا البحث هو أنه لا ينبغى لمسلم أن يحاول فهم شخصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنه عبقرى عظيم، أو قائد خطير، أو داهية محنك، فهذا يخالف الحقائق الكبرى التى كانت تزخر بها حياة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم.

ومما لا شك فيه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان متصفا بكل صفات السمو والكمال الخلقى والعقلى والنفسى، ولكن كل ذلك إنما ينبع من أنه رسول من عند الله، ومن العبث أن نتجاهل هذا الأصل مطلقا، والرد على مثل هذه المحاولات الفاشلة إنما يكون بلفت النظر إلى الأصل.

كما أود أن ألفت النظر أيضا إلى أن المسلم لا ينبغى له أن يتصور أن المعجزة الوحيدة فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هى القرآن، مادام أنه لا ينكر أن له ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيرة يحاول أن يفهم حياته من خلالها. وأما إنكار وجود هذه السيرة فهو أمر لا مبرر له، والذى ينكر السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة القرآن أيضا؛ إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا معجزة القرآن. وأما تأويل هذا

طبق ما يستهوى النفس فهو إسفاف غريب فى تصنُّع البحث والفهم، لا يقدم عليه من كان معتزا بعقله. كريما على نفسه[1].

وإننى أسوق هذا الحديث لأننا نجد من المسلمين من ينكر المعجزات الأخرى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير القرآن. فقد حرص بعضهم على تضييق نطاق الغيبيات التى لا تتفق مع علمية الغرب المادية،[2] فقد راح ينكركل معجزة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستثنى من هذا ـ كما استثنوا ـ معجزة القرآن الكريم.

ونحن المسلمين لا ننكر أن معجزته الكبرى هى القرآن الكريم، ولكننا ننكر حصر معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك.

والقرآن الكريم من أعظم معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه جاء به فى زمن البلغاء والفصحاء، وسألهم جميعا أن يأتوا بمثله، قال ـ تعالى ـ:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3].

---

(١) فقه السيرة د/ محمد سعيد رمضان البوطى ص ٩، ١٠ بتصرف.

(٢) انظر كتاب (حياة محمد: محمد حسين هيكل ص ٣٤) وكتاب (الوحى المحمدى للأستاذ رشيد رضا، وعبقرية محمد لعباس محمود العقاد، ومحمد والقوى المضادة لمحمد خلق الله) وغيرهم من الكتاب.

انظر منهج العقلية الحديثة فى التفسير د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الروحى ص ٧٧٢ فما بعدها بتصرف.

(٣) سورةالإسراء، الآية: ٨٨.

فأعجزهم[1] فسألهم سورة منه[2] بحيث تصدق على سورة الكوثر فعجزوا.

فما اقتصر على تعجيزهم حتى أضاف إليهم أكثر منهم وهم الجن. ومع ذلك التوبيخ الذى يأباه ذوو المروءات، ويثير الحميات ـ لا سيما عند العرب العرباء ذوى الأنفة والكبرياء ـ.

وقد اشتمل القرآن الكريم على مثل سورة الكوثر سبعة آلاف مرة. فيكون سبعة آلاف معجزة، وفيه من المعجزات وجوه كثيرة جدا [3] وليس هذا موضع التوسع فيها.

وقد ثبت لرسول الله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات أخرى غير القرآن فمن معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ انشقاق القمر[4].

وهو أعظم من انشقاق البحر؛ لأن الماء فى كل حين يفترق من حيث الجملة.

(١) ورد بعض معارضات تدل على السخف والخبل العقلى. وهى مذكورة في بعض كتب علوم القرآن.
انظر مثلا: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ٢ ص ٣٢٤فما بعدها.

(٢) بنص القرآن ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ يونس، آية: ٣٨.

(٣) انظر وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم. (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقراقى ص ٣٦٠) فما بعدها.

(٤) انشقاق القمر ورد فى القرآن بصريح اللفظ قال ـ تعالى ـ: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ الآية.

وأجرى الله الماء من أصابعه [1] وهو أعظم من إجراء الماء من الحجر؛ لأن الحجر مكان الماء من حيث الجملة، وكلمه الحصى[2] والذراع[3].

ومن معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ (تكثير الطعام) ببركته ودعائه، وقد حدث هذا مرات كثيرة، وأقر به من صحابته الذين لمسوه وعلموه علم اليقين، ومنها (حنين الجذع) الذى كان يضع

---

(١) نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ وردت فيه روايات عدة فى الصحيح. والراجح أن هذه المعجزة قد تكررت مرات عدة. فقد وقعت بالزوراء عند السوق. وردت فى يوم الحديبية وفى غزوة تبوك. وقد روى ذلك من الصحابة: أنس وجابر وابن مسعود. ويمكن الوقوف على تفصيل هذه الواقعة فى الشفا ج ١ ص ٥٥٠ فما بعدها، راجع الزرقانى على الموطأ ١/ ٦٥.

(٢) تسبيح الحصى وردت فيه روايات عدة تدل على تكرار الواقعة؛ فقد روى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «لما استقبلنى جبريل ـ عليه السلام ـ بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله» رواه البزار فى مسنده.

وعن جابر بن سمرة، عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إننى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ» (صحيح مسلم) وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: أخذ ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفا من حصى فسبحن فى يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى سمعت التسبيح، ثم صبهن فى يد أبى بكر فسبحن، ثم فى أيدينا فما سبحن.

انظر تاريخ ابن عساكر. وانظر الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ٥٨٨ ـ ٥٩١.

(٣) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن يهودية أهدت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخيبر شاة مصلية سمتها، فأكل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها وأكل القوم.. فقال: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتنى أنها مسمومة» فمات بشر بن البراء. وقال لليهودية: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: إن كنت نبيا لم يضرك ما صنعت، وإن كنت ملكا أرحنا الناس منك.

أخرجه الشيخان.

يده ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يخطب المسلمين على منبره، فاستغنى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركه فسمع لذلك الجذع حنين بصوت كصوت الناقة إذا حنّت على ولدها، حتى ارتج المسجد ببكاء الناس لذلك؛ ولا زال يحن حتى نزل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المنبر وضمه وحضنه فسكن[1].

ومنها (الإسراء والمعراج)[2].

ومنها: «ما وقع لسراقة بجواده، ولبسه حلى كسرى»[3].

ومعجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة ليس هذا موضع استيعابها، وقد أجمع أولياؤه وأعداؤه على أنه من أصدق الناس وأكرمهم، وأشجعهم وأكثرهم أمانة وإعراضا عن الدنيا وترغيبا فى الآخرة. لم يختلف فى هذه الصفات اثنان ممن خالطه من الكفار والمسلمين. وهذه صفات لا تجتمع إلا لنبى، فمن كفر به يلزمه ألا يعتقد بنبوة غيره من الأنبياء[4].

وخلاصة القول:ـ

فى فهم شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجب أن نعتقد الآتى:

(١) الاصطفا فى سيرة المصطفى ج ٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) روى قصة الإسراء والمعراج البخارى، صحيح البخارى ج١ ص ١٥٠ وصحيح مسلم ج١ ص ١٥٠، وذكره السيوطى فى الدر المنثور ج ٤ ص ١٤٠ ومجمع الزوائد للهيثمى ج ١ ص ٧٦

(٣) الاصطفا فى سيرة المصطفى ج٣ ص ٢٣٣.

(٤) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافى ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥: بتصرف.

١ـ علينا أن نفهم شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلال حياته وظروفه التى عاش فيها؛ للتأكد من أنه رسول الله ـ تعالى ـ أيده بالوحى.

٢ـ وصف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعبقرية المجردة فيه تَجَنٍّ على حقه ومكانته ـ صلى الله عليه وسلم ـ والهدف من هذا الوصف هو إنكار الرسالة، وإن لم يصرح أصحاب هذا الوصف به.

٣ـ أن تصوير حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنها حياة بشرية عادية أمر يخالف الواقع، ويطمس الحقيقة الناصعة؛ لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشر، ولكنه يوحى إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾(١)

٤ـ أن إنكار المعجزات والخوارق فى سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتصوير حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنها كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات والآيات التى يؤيد الله بها فى العادة أنبياءه الصادقين أمر لا مبرر له سوى الإنكار فحسب.

إن منبع هذه النظرية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما قال بها بعض المستشرقين والباحثين الأجانب من أمثال

(١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

غوستاف لوبون، وأوجست كونت، وهيوم، وجولدزيهر وغيرهم. وأساس هذه النظرية عندهم وسببها: هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أولا؛ ذلك لأن الإيمان بالله ـ عز وجل ـ إذا استقر فى النفس، سهل الإيمان بكل شئ.

ثم تلقف هذه النظرية منهم أناس من المسلمين، جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب، دون أى سبب سوى الافتتان بزخرف خداعهم، وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية، التى هبت فى أنحاء أوروبا(١).

٥ـ أن أبرز صفة فى حياة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى «النبوة» لا شك ولا ريب، والنبوة هى من المعانى الغيبية التى لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة.

وإذاً فإن معنى المعجزة الخارقة قائم فى أصل كيانه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلا يتسنى نفى المعجزات (٢) والخوارق عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بهدم معنى النبوة نفسها، ونسخها من

(١) فقه السيرة د/ سعيد رمضان البوطى ص ١٠٦.

(٢) المعجزات: هى أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدى، سالم عن المعارضة. وهى إما حسية، تشاهد بالبصر أو تسمع، كخروج الناقة من الصخرة، وانقلاب العصا حية، وكلام الجمادات.
وإما معنوية تشاهد بالبصيرة، كمعجزة القرآن. وقد أوتى نبينا ﷺ من كل ذلك. انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة للشيخ حافظ بن أحمد حكمى ص ٨٢. خرج أحاديثه تنعيم أحمد خليل السلفى.

حياته، وذلك يساوي إنكار الدين.

٦- إذا نظرنا فى حياته - صلى الله عليه وسلم - بتدبر وتأمل اتضح لنا جليا أن الله - جل علاه - أجرى على يدى المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - كثيرا من المعجزات التى لا مناص من قبولها، ولا مجال لردها وإنكارها؛ لأنها نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التى ترتقى بالفكر والعقل إلى درجة القطع واليقين.

٧- وأخيرا إن الذى خلق المعجزات وأجراها على يدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الله - تبارك وتعالى - خالق الكون وما فيه من معجزات.

وإن الحق الذى يجب أن يفهمه كل عاقل أن المألوف وغير المألوف معجزة فى أصله. فالكواكب معجزة، وحركة الأفلاك معجزة، وقانون الجاذبية معجزة، والمجموعة العصبية فى الإنسان معجزة، والدورة الدموية فيه معجزة، والروح التى فيه معجزة، والإنسان نفسه معجزة، والله يهدى من يشاء؛ فنسأله - تعالى - الهداية إلى صراطه المستقيم، إنه سميع مجيب.